آرثر شوبنهاور (1788_ 1860)

1_ حياته:

ولد ارثور شوبنهاور سنة 1788 في مدينة جدانسك (بولندا حاليا) لاب تاجر ثري وأم ذات اهتمامات ادبية، ونشأ في وسط اجتماعي منفتح أتاح له منذ طفولته السفر والاطلاع على ثقافات متعددة، وهو ما ترك اثرا واضحا في شخصيته ونظرته للعالم. وبعد انتقال عائلته الى هامبورغ خضع لتربية صارمة من والده الذي أراد منه ان يتجه الى التجارة، لكن ميوله الفكرية والعلمية كانت اقوى من التوجه الاسري. ومع وفاة والده سنة 1805 تحرر شوبنهاور من الضغوط العائلية وقرر التوجه الى الدراسة، فالتحق بجامعة غوتينغن حيث بدأ تكوينه الفلسفي الجاد، فدرس الفلسفة واللغات والعلوم الطبيعية وتعمق في فلسفة كانط، كما اطلع على التيارات المثالية الألمانية التي سرعان ما اتخذ منها موقفا نقديا، وبخاصة من هيغل الذي اعتبره ممثلا لفلسفة شكلية خالية من العمق.

في سنة 1811 انتقل الى برلين لحضور محاضرات فيخته وشلايرماخر، لكنه لم يجد نفسه منسجما مع المثالية السائدة، فانصرف الى تطوير مشروعه الخاص، أنهي اطروحته الأولى "عن الجذر المزدوج لمبدأ العلة الكافية" سنة 1813، ثم عمل على كتابه الاهم "العالم ارادة وتمثلا" الذي صدر سنة 1818 دون ان يلقى اهتماما بسبب هيمنة الهيغلية في الجامعات. عاش شوبنهاور بعد ذلك سنوات طويلة في عزلة فكرية، متنقلا بين فإيمار ودريسدن وفرانكفورت، مكرسا حياته للتأمل والكتابة وقراءة الفلسفات الشرقية، بينما ظل مهمشا من الاوساط الاكاديمية. حاول التدريس في جامعة برلين، لكن محاولته فشلت امام شعبية هيغل الواسعة، ما دفعه الى الانسحاب نهائيا من الحياة الجامعية.

لم يبدأ الاعتراف الحقيقي به إلا في منتصف القرن التاسع عشر، عندما لفت كتابه "ملحقات وتتمات" سنة 1851 انظار الجيل الجديد من الادباء والفلاسفة، فبدأ اسمه ينتشر بسرعة وتزايد الاهتمام بفلسفته. ومع تقدمه في السن أصبح شوبنهاور يحظى بشهرة واسعة لم يعرفها في شبابه، وتجمع حوله عدد من التلاميذ والمعجبين استقر في سنواته الاخيرة في فرانكفورت حيث عاش حياة هادئة نسبيا الى ان توفي سنة 1860، تاركا وراءه مشروعا فلسفيا مؤثرا شكل أحد اهم أسس الفكر الاوروبي الحديث.

2_ مؤلفاته:

ترك ارثور شوبنهاور عددا مهما من المؤلفات التي شكلت مجتمعة نواة فلسفته حول الارادة والتشاؤم الميتافيزيقي. ويعد كتابه الاشهر "العالم ارادة وتمثلا" الصادر في طبعته الاولى سنة 1818، ثم في طبعة موسعة سنة 1844، العمل المركزي الذي بنى فيه نسقه الفلسفي، إذ جمع فيه بين التأثير الكانطي والفكر

الشرقي ليعرض رؤيته للعالم باعتباره إرادة عمياء وتمثلا ذهنيا وقبل ذلك نشر دراسته المبكرة "عن الجذر المزدوج لمبدأ العلة الكافية" سنة 1813، وهي أطروحة منهجية حدد فيها أشكال العلية وأصناف المعرفة، وتعد المدخل الأول لفهم منهجه وفي سنة 1836 أصدر كتاب "حول الارادة في الطبيعة"، حيث حاول فيه ربط ميتافيزيقا الارادة بالعلوم الطبيعية من خلال أمثلة بيولوجية وطبيعية. ثم نشر سنة 1841 رسالتين مهمتين: "حول حرية الارادة" و"حول أساس الاخلاق"، وقد نال عن الاولى جائزة من الجمعية الملكية في النروج، بينما قدم في الثانية نقدا للاتجاهات الاخلاقية القائمة على العقلانية مفضلا اخلاقيات الشفقة. اما كتاب "ملحقات وتتمات" الصادر سنة 1851 في مجلدين، فهو مجموعة مقالات شملت موضوعات متنوعة في الدين والفن والحياة البشرية والنفس، وقد كان هذا العمل سبب شهرته المتأخرة لسهولة اسلوبه مقارنة بصرامة كتابه الرئيسي. وتضاف الى هذه الاعمال كتابات اخرى مثل "عن رؤية العالم والافكار" و"دراسات في فلسفة الفن والموسيقى"، وهي نصوص ساهمت في توضيح جانبه الجمالي وترسيخ مكانته في الفكر الحديث. وبذلك تمثل مؤلفاته، الممتدة بين 1813 و1851، مشروعا فلسفيا متكاملا عالج فيه الميتافيزيقا، الاخلاق، الفن، والوجود الانساني من زاوية خاصة ميزته عن كل فلاسفة عصره.

3_ فلسفته:

أ_ العالم من حيث هو تمثلا: يبدأ شوبنهاور من الفكرة القائلة بأن العالم الذي يواجهنا ليس العالم في ذاته، بل هو تمثل يتشكل وفق شروط الوعي، فالزمان والمكان والعلية ليست خصائص للأشياء بل هي بنيات ذهنية تنظم خبرتنا بالواقع. ولذلك فإن معرفتنا لا تتجاوز مستوى الظواهر، ويتحول العالم الخارجي كله الى صورة ينتجها العقل كما أنه هناك الارادة جوهر الوجود :خلف هذا التمثل تقيم الحقيقة الباطنة التي يسميها شوبنهاور الارادة، وهي قوة لا عقلانية، عمياء، تتدفق في جميع الكائنات وتدفعها نحو الحركة والصراع والرغبة. وهذه الارادة ليست واعية، بل هي دافع اولي يشكل أصل الحياة والطبيعة والإنسان، ويمثل في الوقت نفسه "الشيء في ذاته" الذي عجزت الفلسفة الكانطية عن تحديد طبيعته.

ب_ **التشاؤم الوجودي:**

وبما أن الارادة لا تكف عن السعي والطلب، فإن الحياة تصبح سلسلة من الرغبات التي لا تنتهي، حيث يرافقها الالم بشكل دائم، لان الاشباع مؤقت ومحدود بينما الحاجة متجددة فالانسان يتأرجح، في نظره، بين الألم والملل، وهما قطبا الوجود، لذلك يرى أن العالم محكوم بالبؤس والمعاناة .**الاخلاق والشفقة :** وعلى الرغم من هذا التشاؤم، يؤسس شوبنهاور أخلاقا ترى ان الشفقة هي الدافع الاخلاقي الاعلى، لأنها

تكشف أن الفرد يدرك وحدة الارادة التي تجمعه بالآخر، فيتعاطف معه ويسعى لتخفيف معاناته. وهو بهذا يرفض الأخلاق العقلانية المجردة ويجعل المشاركة الوجدانية أساس الفعل الأخلاقي.

ج_ **الفن والجمال:** يمنح شوبنهاور مكانة خاصة للفن، الذي يسمح للإنسان بالتحرر المؤقت من سلطة الرغبات، إذ يقدم حالة تأملية نقية ينتفي فيها التعلق بالذات. وتحتل الموسيقى عنده مكانة متميزة لأنها تجسد مباشرة جوهر الارادة وتكشف عمقها دون المرور بالصور المرئية.

د_ **الخلاص والزهد:** أما الخلاص الحقيقي من الارادة فيتحقق عبر الزهد وضبط الرغبات والتقليل من التعلق بالعالم، وهو تأثر واضح بالفلسفات الشرقية كالبوذية، حيث يقود انطفاء الرغبات الى حالة من السكينة الوجودية وبهذه العناصر تتشكل فلسفة شوبنهاور كنسق ميتافيزيقي متكامل يرى أن الارادة هي أصل الوجود، وان العالم تمثل، وأن الخلاص ممكن عبر الفن والشفقة والزهد، مما يجعل مشروعه واحدا من أهم انظمة التشاؤم الفلسفي في الفكر الغربي.

وكان لفلسفته أثر كبير في الفكر اللاحق، فقد تأثر به نيتشه في بداياته ثم انقلب عليه، كما استفاد منه فرويد في بلورة مفهوم اللاوعي، ووجد فيه تولستوي دوستويفسكي منظورا جديدا للمعاناة الانسانية. وقد شكلت رؤيته حول الارادة والمعاناة اساسا مبكرا للوجودية والعدمية والفلسفة التشاؤمية الحديثة. وهكذا تتجلى فلسفة شوبنهاور كنسق ميتافيزيقي كامل يرى ان الارادة أصل الوجود، وأن العالم تمثل، وان الانسان قادر على تخفيف معاناته عبر الفن والشفقة والزهد، مما يجعل مشروعه واحدا من أكثر المشاريع الفلسفية تأثيرا وعمقا في الفكر الغربي الحديث.

خاتمة

تقدم فلسفة شوبنهاور رؤية ميتافيزيقية متكاملة يرى فيها أن جوهر العالم هو الإرادة العمياء التي تدفع كل الكائنات نحو الرغبة والصراع المستمر، مما يجعل الحياة في جوهرها قائمة على المعاناة والتشاؤم ومع ذلك، لم يكتفِ شوبنهاور بوصف الألم، بل قدم وسائل للتخفيف منه، من خلال الشفقة كأساس للأخلاق، والفن كمهرب مؤقت من سلطان الإرادة، والزهد وكبح الرغبات كسبيل للخلاص النهائي .كما شكلت فلسفته جسراً بين الفكر الغربي والفلسفات الشرقية، وأثرت بشكل عميق في فلاسفة لاحقين مثل نيتشه وفرويد، وفي الأدب والفن الأوروبي وبذلك، تظل فلسفة شوبنهاور مساهمة أساسية في فهم طبيعة الوجود الإنساني، وعلاقة الإنسان بالألم والرغبة، وتوضح كيف يمكن للفكر أن يقدّم رؤية نقدية للحياة تتجاوز المظاهر إلى جوهرها العميق.